

خيال الوقت

قصة واقعية بقلم حياة الباقوت

قصة للفتيات من إصدارات حملة ركاز الإعلامية العاشرة

9443 1460

rekaaz.com

ركاز
مكتبة

www.alkottob.com

خيال الوقت

قصة واقعية بقلم حياة اليافوت

يقال أنّ لكلٍ من اسمه نصيب، و كان لـ ”خيال“ من ذلك نصيب وافر.

كانت تتدرّع وتتذرع بقول عالم الفيزياء آينشتاين أنّ ”الخيال أهم من المعرفة“ لتبرر شروطها الدائم وأحلام اليقظة التي ترافقها كظلمة. ولا ندري حقيقةً هل هذا نتيجة لمرحلة المراهقة التي تمر بها، أم أنه طيف اسمها يلاحقها ويرمي عليها بعباءته، أم هو سوء إدارتها لحياتها. لكن ما نعلمه يقيناً عن خيال هو أنها لا تعلم الكثير عن نظريات آينشتاين سوى تلك المقولة التي حفظتها عن ظهر قلب لتتخلص بها من إلحاحات والديها وشقيقها التوأم يوسف.

كانت ذات يوم في خلوتها تمارس هوايتها الفضلى؛ تضييع الوقت! لا تتصفح من الإنترنت إلا تفاهاتها، معلقة سماعتي جهاز الـ ”آيبود“ كما لو كانتا قرطين يشنقان أذنيها اللتين أتخمتهما بإزعاج نشازي لا ينتهي، وتشرّد بين الفينة والأخرى تتأمل زخارف السقف وتفكر في اللاشيء، أو ربما في شيء لا تريد البوح به!

طرق توأمها يوسف الباب واستأذن. أزال أحد قرطبيها، عفوا إحدى سماعتي الـ ”آيبود“ على مضض، وهي تعلم سلفاً بالموشح الذي ستسمعه منه. هي بدورها جهزت المعزوفة المعتادة التي ترد بها على موشحه. ومن يراهما هكذا يعجب من كونهما توأمين.

- ماذا تفعلين يا لولو؟
- توقف عن مناداتي بهذا الاسم.
- أضيرك أن يناديك شقيقك باسم الدلع؟
- لا، لكني أعلم أن وراء موجة التدليع هذا خطبة عصماء، وقد حفظتها عن ظهر قلب، فوفرّ على نفسك التعب.
- أجل، كيف لا تعرفين وأنت توأمي وتقاسمت معي ظلمات ثلاث لمدة تسعة أشهر.
- لا تنس يا "يوسف" أي خرجت قبلك، أي أنني أكبر منك
- أجل، أجل طبعاً. وتعلمين أكثر مني بسنة ولا تحتاجين إلى نصائحي!
- أصلاً ما كنت لأخرج قبلك وأضحى بالبحبوحة والراحة في بطن أمي لولا "حنّك" المستمرة ومواعظك.
- سامحك الله. على العموم، هل تحتاجين مساعدة في الدراسة؟
- كما ترى فإنني منهمة في شحذ همتي قبل الدراسة، ولذا لا أحتاج إلى مساعدتك الآن.
- لولو، أنت تضيعين الوقت، لقد مر شهر على بداية الدراسة، ونحن في السنة النهائية.
- كلا، أنا أتسلى حتى تفتح شهيتي للدراسة.
- بل تتهريين.
- أنا من مواليد برج الحوت، ومواليد مشهورون بالهروب من الواقع وبالركون إلى الخيال. وآينشتاين كان من مواليد هذا البرج بالمناسبة.
- أه، عدنا للخزعبلات! حسن، أين أنت من إنجازات آينشتاين إذا؟ ثم هل نسيت أنني أنا أيضاً من مواليد البرج ذاته ولا تفصلني عنك سوى دقائق، فلم لا أسلك سلوكك؟
- لا أدري، أسأل نفسك. "يوسف"، لقد أكثرت جدالي وضيّعت وقتي، هيا اخرج من غرفتي!
- ضييعت وقتك؟ من يسمعك يقل أنك كنت منشغلة باختراع صاروخ يعمل على طاقة البقدونس!
- هل تعلم؟ مشكلتي أنه ليس لدي الوقت الكافي، ولو كان اليوم 34 ساعة بدلا من 24، لكنت الأولى على الصنف!
- عدنا للأفكار الخيالية!

- كان الباب مفتوحا وسمعت والدتهما الجمل الأخيرة من الحوار، فانضمت إليهما قائلة:
- ما رأيك يا خيال لو استعملت خيالك واخترعت لك ولنا طريقة تحول اليوم إلى 34 ساعة فتكوني الأولى على الصف؟
 - إن شاء الله، بعد أن أتخرج من الثانوية هذا العام.
 - ”هذا إذا تخرجت أصلاً!“ قال يوسف.
 - ”أمي، هل سمعته؟!“ صاحت خيال.
 - ”أمي، ما رأيك أن تخبري خيال عن هديتي إذا ما تفوقت في الثانوية العامة. أخبريها أن تلك السيارة التي رأيناها في المعرض الصيف الفائت ستكون من نصيبي. أما هي فلتنفعها أحلام اليقظة!“ أردف يوسف.
 - ”مهلا، مهلا! السيارة الرياضية إياها؟ وأنا ما ستكون هديتي؟“.
 - ”الأمر يعتمد على المجموع“ قالت الأم.
 - ”ها ها ها. يسمونه التناسب الطردي، كلما زاد المجموع زادت قيمة الهدية.
 - افتحي كتاب الرياضيات لتعرفي.“ شاكسها يوسف. ”ويبدو أنك لا تعلمين عن أمر الجامعة الخاصة المرموقة التي خططت للالتحاق بها إن شاء الله بعد التخرج!“
 - مهلا، كيف ناقشتما كل هذه الأمور مع يوسف ولم تناقشاها معي؟!
 - ”لم نرك مهتمة بأمور مستقبلك كثيراً“ أجابت والدتها.
- ثم انسحبا وتركاهما.
- تركاها تلملم شعث نفسها، تركاها تشهق كغريق نجا للتو من لجة بحر أجاج فأخذ يعبُّ هواء الحياة العذب كما لو كانت المرة الأولى التي يتنفس فيها. تركاها وأغلقا الباب خلفهما، لكن ثمّة باب، ثمّة كوة ولج منها النور ووصل إلى خيال كما لم يصل من قبل.

• • •

أَمْضَتْ لَيْلَتَهَا تَتَقَلَّبُ عَلَى جَمْرِ الْغَضَى. لَمْ يَكُنْ أَمْرَ الْهَدَايَا أَوْ الْجَامِعَةِ هَمَا يَقْلِقَانَهَا بِقَدْرِ مَا أَلَمَهَا إِحْسَاسُهَا بِأَنَّهَا كَمْ مَهْمَلٌ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ إِنْسَانَةً رَاشِدَةً تَسْتَحِقُّ أَنْ تُتَاقَشَ مَعَهَا أُمُورُ الْمُسْتَقْبَلِ. يُقَالُ أَنَّ قُلُوبَ الْمَرَاهِقِينَ حَسَّاسَةٌ، وَيَبْدُو أَنَّ مَا حَدَثَ ضَرْبَ عَلَى وَتَرِ حَسَّاسٍ، وَمَسَّ عَصَبًا مَكشُوفًا، وَالتَّقَى الْكَلَامَ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ.

لَمْ يَغْمُضْ لَهَا جَفْنَ لَيْلَتِهَا، وَأَخَذَتْ تَتَفَكَّرُ فِي وَسِيلَةٍ لِتُثَارَ لِكِرَامَتِهَا. كَيْفَ يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَعَامِلُوهَا هَكَذَا كَمَا لَوْ كَانَتْ كَيْسَ قِمَامَةٍ غَيْرِ ذِي نَفْعٍ! لَكِنْ ضَمِيرُهَا قَرَصَهَا إِذْ تَذَكَّرَتْ غَفْلَتَهَا عَنِ الْحَيَاةِ.

تِلْكَ اللَّيْلَةُ، تَبَدَّتْ لَهَا الْحَيَاةُ كَسَاعَةِ رَمَلِيَّةٍ تَتَسَابُ حَبِيبَاتِهَا بِشَكْلِ خَلَابٍ أَمَامَ السَّادِجِ قَصِيرِ النَّظَرِ. أَمَّا ثَاقِبُ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةُ، لَنْ يَنْشَغَلَ بِجَمَالِ الْحَبِيبَاتِ الذَّهَبِيَّةِ، بَلْ سَيَرَى السَّاعَةَ الرَّمَلِيَّةَ كَامِلَةً، سَيَرَى كَمْ انْقَضَى مِنْهَا، وَكَمْ تَبَقِيَ.

بَكَتْ حَتَّى تَسْرَبَتْ الدَّمُوعُ الْمَالِحَةَ إِلَى أُذُنَيْهَا الْمَتَخَمَتَيْنِ لِتَغْسِلَهُمَا مِنْ دَرَنِ سَنِينِ الشَّرُودِ، بَكَتْ وَبَكَتْ حَتَّى غَفَّتْ كَالطِّفْلِ الْوَدِيعِ. اسْتَيْقَظَتْ وَقْتُ صَلَاةِ الْفَجْرِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهَا، اسْتَيْقَظَتْ مِنْ غَفْوَتِهَا وَمِنْ غَفْلَتِهَا. تَوَضَّأَتْ بِالْمَاءِ وَبِالنُّورِ وَبِالْعِزْمِ. رَكَعَتْ وَدَعَتْ كَمَا لَمْ تَدْعُ مِنْ قَبْلِ، دَعَتْ بِصَدَقِ هَذِهِ الْمَرَّةِ.

عَقَصَتْ شَعْرَهَا بِعِزْمٍ، وَلَفَّتْ حِجَابَهَا بِشَكْلِ مُخْتَلَفٍ هَذَا الْيَوْمِ، لَمْ يَعِدْ مِتْرَاحِيَا مِتْرَاجِعَا مِثْلَمَا كَانَ دَائِمًا. إِنَّهُ مَشْدُودُ الْيَوْمِ، مَشْدُودُ كَرُوحِهَا الْعَازِمَةِ.

لَمْ تَلْتَفِتْ لِاسْتِغْرَابَاتِ أَبِيهَا مِنْ اسْتَيْقَازِهَا الْمُبَكَّرِ وَمِنْ تَغْيِيرِ سَمَّتِهَا، إِذَا كَانَتْ طَوَالَ الطَّرِيقِ شَارِدَةً، لَكِنْ شَرُودَهَا هَذِهِ الْمَرَّةَ لَمْ يَكُنْ كَأَيِّ شَرُودٍ. كَانَتْ تَدْعُو أَنْ تَصِلَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ مُبَكَّرًا لِتَلْقَى مَعْلَمَةَ الْفِيْزِيَاءِ لِتَفَاتِحَهَا بِمَا يَعْتَمَلُ فِي رُوحِهَا. وَاسْتَجَابَ اللَّهُ لِدَعَائِهَا.

لم تكن تخطط وحسب لتغيير مستواها الدراسي، بل كانت تريد أن يكون لها نشاط ما، شيء تحس أن لها قيمة بسببه، شيء يجعلها تشعر أنها حقا خليفة لله على هذه الأرض. واختارت أن تخبر "أبلة رواء" بالأمر، فهي لسبب ما تحب هذه المعلمة رغم أنها تخجل من مستواها المتواضع في مادتها، وتحب الفيزياء لأنها تلامس بشكل أو بآخر نزعة الخيال التي لديها.

اقترحت عليها معلمتها الكثير من الأمور، وطلبت منها أن تعود إليها في الغد لتعطيها دفترا يساعدها في تنظيم وقتها بعدما لمست أن خيال التي تكلمها إنسانة مختلفة، إنسانة قررت أن تتغير، قررت أن تنجز، إنسانة علمت أنه لا طائل من تمنى أن يزيد اليوم بضع سويقات، بل إنسانة قررت أن تتعامل مع ساعاته كما هي. فالوقت ثابت، فكل لديه 24 ساعة، لكن تعاملنا معها نسبي، والفائز هو من يعرف كيف يتعامل مع الوقت بأصابع ماهرة.

طفقت خيال تدرس ما عليها أن تدرسه، وفي الوقت نفسه الوقت تراجع بعض ما مر معها في السنوات الماضية إذ أن الأمور العلمية تراكمية. لكن عزميتها المشحودة لم تقف عند هذا الحد، ولم تستمع لوسوسات نفسها بأن عليها أن تركز في دروسها فقط فهذه سنة مفصلية، بل التحقت بالنادي العلمي وتلقت دروسا إضافية في الفيزياء، وبعد فترة يسيرة بدا عليها - ويا للغرابة - تميز في مجال "فيزياء الوقت"! الفتاة التي كانت تحترف تضييع الوقت، صارت اليوم تدرس الوقت من منظور فيزيائي وتبرع في نظرياته!

لم يكن الأمر سهلا البتة، فالانسحاب من حياة التبدل واللهو والشروء أمر غير يسير. لكن كلما تراءت الساعة الرملية للحياة أمام خيال وهي تثعب وقتا، كلما اكتنزت روحها برغبة في التعويض عما فات، وكلما ثبتت نفسها بالقول "الوقت ثابت، تعاملنا معه هو النسبي، وأنا قررت أن أكون من النخبة في تعاملتي مع الساعة الرملية لحياتي".

تعلمت خيال كيف تضع خيالها في خدمة الوقت وفي خدمة الإنجاز، لا أن تضع الوقت وتضيّعه في خدمة خيالها الجامح. تعلمت أن الخيال - إن وضع في موضعه الصحيح - قادر على تمديد الوقت واختصار المسافات! هذا هو "خيال الوقت"، أي الخيال في خدمة الوقت.



وفي يوم من أيام شهر يونيو الدافئ رنّ الهاتف بالبشرى. كلا، لا يزال الوقت مبكرا على إعلان نتائج الثانوية. تلك المكالمة كانت من النادي العلمي، اتصلوا ليهنؤوا خيال ويدعوا أهلها لحضور حفل التكريم لحصولها على جائزة أحسن بحث علمي لهذا العام بين طلبة الثانوية في مجال الفيزياء! وجاء بشير آخر بعد بضعة أيام؛ مكالمة أخرى تبشر يوسف بالتفوق الباهر، وتبشر خيال بنتيجة زاهرة ما كان لأحد أن يتوقعها.

التفتت إلى توأمها يوسف قائلة:

- أنت مدعو لأكلة هامور أو زبيدي - تخيير ما شئت - احتفاءً بتخلصي من شبح الأبراج، واحتفالاً بنجاحي الباهر، وبيجتي الفائز، وطبعاً بتفوقك.
- إذا "حتّتي" آتت أكلها؟ لكن ألا يمكننا أن نتناول "فيليه" الحوت نكاية ببرجنا الذي تخلصت من وهمه؟ كما أن الحوت يليق بالمقام الرفيع لسيارتي الجديدة!
- هاه، لا تفرح كثيرا، فأنا أيضا سأحصل على هدية تتناسب طرديا مع مقدار تطوري. وربما فاقت هديتي هديتك روعة!
- لا أكاد أصدق أن التي أمامي خيال!
- صدّق يا "يويو" صدق، فأنا شقيقتك التوأم.
- يويو؟
- دلج "يوسف". أضييرك أن تتاديك شقيقتك باسم الدلج؟
- ظننتك تتكلمين عن لعبة "اليويو" بما أنكم تستخدمونها لإجراء البحوث الفيزيائية على الوقت!

وضحك الاثنان ملء رئتيهما. ضحكا ضحكة الفائزين، فقد فاز ، من حياته إنجاز!



فاز

من حياته إنجاز

